نقبل مقاييس مختلفة متشعبة ، لأن الاختلاف والتشعب آية الحياة نفسها ، ولكن لابد من التقويم ، لأن الحياة ليست فوضى بلا قانون رشيد . لكل عصر بلاغته ، لأن لكل عصر مطلبه من الحياة ، ولا يستقيم الحكم الأدبى أو تمحيص اللغة بمعزل عن نظرة فلسفية فى طبيعة الحياة الناهضة ، كل حياة تخلق على هذه الأرض تؤتمن على قوتين عظيمتين : إحداهما تحفظها ، والأخرى تعلو بها عن نفسها ، وقد نقول بعبارة أخرى إن إحدى هاتين القوتين مادية تتمشى مع الضرورة وتخضع لها ، والثانية روحية تتكبر على الضرورة ، وتنزع الى الحرية ، ومناط هذه القوة الأخيرة فى النفس الأشواق المجهولة ، وآمال الخيال اللدنية ، والمثل العليا ، التى لا تظهر فى شىء مما يعالجه الناس ظهورها فى مبتكرات الآداب والفنون .

ومن شواهد ذلك أن الناس يكرهون أن يفاجئوا فى أثناء خضوعهم لشهوة من الشهوات الاضطرارية المسلطة على المخلوقات عامة ، ومن شواهده أنهم من الناحية الأخرى يهللون تهليل الطرب والارتياح لما يقرءونه فى الشعر والقصص من وقائع البطولة التى يتمرد فيها جبابرة الخيال على سلطان (الأقدار) ويهزءون من آصار الطبيعة وقوانينها القاهرة ، وتراهم يبتهجون ويغتبطون بما يشهدونه على المسارح من الروايات التى تتغلب فيها السجايا المنزهة على المطامع الضيقة الخسيسة ، التى تدين بالتسليم لأقرب أوامر الضرورة ونواهيها ، ويستريحون الى ما تترجاه قرائح الشعراء والحالمين من عصور العدل والفضيلة والكمال والانطلاق من ربقة الحاجات المعيشية ، يهللون لهذه الأمور مع علمهم أنها لاتكون كما يرجون فى عالم الوقائع المحسوسة ، غير أنهم قد أيقنوا بالإلهام أنها هى قائد الإنسانية الذى صحبها خطوة خطوة فى معارج الحياة ، فتقدمت وراءه من حمأة الحشرات المستقذرة الى هذا الأوج المتسامى صعدا الى السماء ، وجعلت الحياة فنا يخيل إلى الإنسان أنه يخلقه باختياره كما يخلق بدائع الصور ، والكون متحفا يقاس بمقاييس الحرية والجمال .

(٣)

فى الأدب كل مافى الحياة من حاضر ومغيب ، ومن فرائض وآمال ، ومن شعور بالضرورة فى الطبيعة الى تطلع لحرية المثل العليا ، وواجب على الذين يفهمون عظمة الحياة من أبناء جيل العقاد أن يحسنوا فهم هذه الحقيقة ليعلموا أن الأمم التى تصلح للحياة والحرية لايجوز أن يكون لها غير أدب واحد ، وهو الأدب الذى ينمى فى النفس